التجربة الإصلاحيّـــــة عند وحيد الدين خـان

د. مـروى بنت الزين حميدي ـ باحثة بالحضارة الإسلامية ـ جامعة الزيتونة - تونس

The Reformist Experience of Waheeduddin Khan

Despite the multiplicity of schools of thought and approaches to reform, Khan takes the example of the Messenger of Allah (peace be upon him) as a model for repeated attempts and perseverance in principle until the goal is achieved. Khan believes that any self, national or global reform must adopt a scientific approach based on all experiments and theories produced by the sound human mind, whether they are related to the disciplined cosmic sciences such as astronomy, mathematics, physics and chemistry, or the human sciences subject to dialogue, discussion and addition. He did not differentiate between two things that he sees as inseparable: reform and dawah because each is linked to the other.

الملخّـــــص :

تعدّدت أصوات الإصلاح والدعوة إلى معالجة الأوضاع في أرجاء العالم الإسلامي على مستوى الفكر والتديّن والعلم والبناء بالرغم من تعدّد المدارس الفكريّة والمشارب الإصلاحيّة ، ويتّخذ خان من سيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - القدوة والمرجع في تكرار المحاولة والثّبات على المبدأ حتى تحقيق الهدف مثلما حاول صلى الله عليه وسلم بناء الدولة الإسلامية الأولى ، ويرى وحيد الدين خان أنّ أيّ إصلاح ذاتي أو وطنيّ أو كوني لا بدّ أن يتوخّى منهجا علميّا يقوم على كلّ ما أفرزه العقل البشري السّليم من تجارب ونظريات سواء كانت متعلقة بالعلوم الكونيّة المضبوطة كالفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء، أوعلوم إنسانية خاضعة للحوار والجدل والإضافة ، ولم يفرق بين أمرين يراهما متلازمين هما : الإصلاح والدعوة لارتباط كلّ منهما بالآخر.

المقدّمــة :

أفــاق العالم الإصلاحي في القرون القريبة الماضية على وقع الاستعمار الغربي وما يحمله نزعة تسلطية وإرادة للهيمنة وإن تغلفت بدواعي نشر التحضر وتوفير الحماية، لكن هذه الدعاوى لم تزد المسلمين إلا تخلّفا، ولم تخدم غير مصالح الغزاة بمختلف الأشكال والأساليب، وقد عانى العرب والمسلمون من الاجتياح العسكري وسلب الثروات، كما عانوا من الإغتراب الفكري ومحاربة كل نزعة عقليّة محلية تدعو إلى العلم والتعليم والتنوير، وفي الجانب الديني، حاول الإستعمار جاهدا أن يقنع المسلمين أن لا تقدّم لهم ولا لحاق بركب الحضارة ما لم ينزعوا عنهم جلباب الدين والتديّن، حتى كاد يقنع الأغلبية بسلامة هذا التوجّه، ولكن بمرور الزمن أدرك المسلمون أنّ نهضتهم لا بدّ أن تكون نابعة من دينهم وفكرهم وواقعهم في غير انغلاق وتحجر أو انبهار وانسياق أعمى وراء الغرب بما جلب وتنفيذا لما خطّط.

لذلك تعدّدت أصوات الإصلاح والدعوة إلى معالجة الأوضاع في أرجاء العالم الإسلامي على مستوى الفكر والتديّن والعلم والبناء بالرغم من تعدّد المدارس الفكريّة والمشارب الإصلاحيّة واختلاف الرؤى والأهداف والأساليب والمناهج والمؤثّرات... وفي هذا الإطار العام، وهذا المحيط المشحون بالمتناقضات والمتضادات، ووسط تصاعد موجات التحرّر، ولد وعاش وأسلم وحيد الدين خان. ترى كيف أسهم في تأسيس حركة إصلاحيّة قدّم فيها رأيه ومنهجه.

المبحث الأول ـ وحيد الدين خان: المولد والنشأة والظهور:

المطلب الأول ـ النشأة ومرحلة الإسلام الأولى:

ولد وحيد الدين خان في جانفي 1925 في بلدة أعظم غاره (AZAMGARH) بالهند، فقد والده وهو ابن أربع سنوات، نشأ يتيما في أسرة ذات تقاليد إسلامية عريقة في التّعليم الديني والتربية والدعوة (1) **وقد** التحق وحيد الدين خان بمدرسة الإصلاح الإسلامية في "صراي مير" سنة 1928 ، **و**بعد أن حفظ القرآن في مرحلة الصبا المبكّرة، وفي هذه المدرسة تلقّى التعليم الديني في مختلف المواضيع، حيث برزت مواهبه الفكرية، ومن هنا انطلق في رحلة أخرى، رحلة العلم والبحث عن المعرفة، واعتمد المطالعة مقوّما أساسيّا في تكوينه وشغفه موظّفا ذكاءه إلى درجة الإدمان على المطالعة وقراءة الكتب الدينية والعلمية والفكرية واللغوية وخاصة اللغة الأجليزية، فقرأ

كتب الفلسفة المعاصرة كالماركسيّة حيث أنهى مرحلة الإطّلاع عليها بتأليف كتابه الشهير "الماركسية في الميزان"(2)

انضمّ الشيخ وحيد الدين خان إلى الجماعة الإسلامية التي أسّسها أبو الأعلى المودودي (1903-1979م) في شبه القارة الهندية ...، وسرعان ما انسحب منها في بداية ستينات القرن الماضي بعد خمسة عشر سنة من الانتماء إثر خلاف عميق مع نهج الجماعة في تصوّر الخطاب الإسلامي وفي نهج الدعوة وأساليبها وآلياتها وأولوياتها (3) وقد نشر وحيد الدين خان الخلفيات التي دفعته إلى الخروج عن الجماعة الإسلامية وفصّل في ذلك كثيرا بنشر الرسائل التي كان يتبادلها مع قادة الجماعة بمن فيهم أبو الأعلى المودودي نفسه الذي آثر السكوت وعدم الردّ على الاعتراضات الجوهرية بخصوص فهم الإسلام والدعوة إليه (4) فيما واصل خان رسالته التي آمن بها حيث وقف بقوّة ضد فكرة الحاكميّة التي تقول بها الجماعة معتبرا أنها فكرة جديدة لا دليل عليها في نصوص الشريعة (5)

المطلب الثاني ـ وحيد الدين خان والمرحلة الدعوية الجديدة:

بعد أن انشـــقّ وحيد الدين خان عن الجماعة الإسلاميّة بقيادة أبي الأعلى المودودي، بدأت ملامــح خطابه الديني تتشكّل وتتبلور من يوم إلى آخر فكان مساره الفكري قائما على نقد كلّ ما يعتقد أنه ليس من الإسلام، وأنّ فيه تحميلا للإسلام ما هو براء منه، وخاصّة من خلال مخالفته للمنهج التقليدي للقيادات التقليدية للحركة الإسلامية التي كما ذكرت يتزعّمها أبو الأعلى المودودي والندوي (1913-1999) وقاضي حسين (1938-2013)، هذا المنهج الذي يقوم على:

المطالبة بحاكميّة الشريعة الإسلاميّة:

وهي التي تلغي ضمنيا كلّ أساليب السّبر في إدارة شؤون حياتهم وتصريف أمور البلاد دولة ومؤسسات، ذلك أنهم يرون أن لا ديمقراطية ولا انتخابات ولا تمثيلية للآخر ولا نقد ولا حوار، إذ الحكم وحده لله، هذا ما أدّى إلى التأزّم الفكري والسياسي وبالتالي التعصّب الأعمى الذي قاد إلى الافتتان والتناحر، وتاريخ الحركات التي سارت على هذا المنهج واضح وبيّن تشهد آثاره السيّئة فيما عاناه العالم الإسلامي (6)

العداء الشديد للدولة الوطنيّة:

لإرغامها على تطبيق الحدود وخوض الجهاد وفق فهمهم، حيث يقوم على السّيف قديما والرصاص والرشاش والدبابة والطائرة حاليا، وذلك بدون اعتبار تطوّر الحياة ومقتضيات العصر، إنهم يفهمون النص الشرعي فهما يخدم أغراضهم بما ينفي مرونة

الشريعة الإسلامية ويعادي كلّ القوانين وطنية كانـت أو دوليـة، وهـو التطبيـق الأعمـى لمقولة "الإسلام دين ودولة" بما يصاحبه من قيم التعصّب والإنغلاق، وإن أظهـر للعلـن مقولة صلوحيّة الدين للزمان والمكان (7)

في المقابل، فإن المنهج الإصلاحي لوحيد الدين خان يخالف هذه النظريّـة مخالفة شديدة، سلاحه في ذلك الحجّة العلمية، استنادا إلى المرجعيـة الشـرعيّة والتاريخيّـة، والاسـتلهام من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، لذلك يرى أنّ الإسلام هو "دين ودعـوة" ولـيس كما يقول الآخرون "دين ودولـة". وكان ردّ خان واضحا من خلال الأفكار التالية التـي نادى بها ودافع عنها وجعلها مقوما أساسيّا في حركته بل دعوته الإصلاحيّـة التي أقامها على:

أ- تغليب مبدأ التسامح (8) إذ لا يمكن أن تتحقّق هـذه المقدّمات مـا لـم يتـوخّى المجتمـع المسلم منهج التّسامح، ذلك أنّ التسامح سمة بارزة ودعامة أساسيّة فـي الـدين الإسـلامي لأنّ التسامح هو الذي يكبح جماح الآخر فلا يسعى إلـى فـرض إرادتـه علـى غيـره دون اقتناع وقبول، لأنّ في غياب ذلك يحلّ الفرض مـن فـوق، أي الإلـزام بالقـوّة وكـلّ قـوّة تـؤدّي إلى التصادم وكلّ تصادم موجب للدمار والخراب والعداء.

ب- إعادة تكييف مفهوم الجهاد: يرى وحيد الدين خان أنّ الجهاد كما تقول بـه الجماعـة تعسّف وخروج عن الدين وإساءة إلى الإسـلام، ويشير إلى أن بعض الإسلاميين استغلوا التاريخ استغلالا خاطئا لمّا قالوا إنّ الإسلام انتشر بالجهاد فـي رأيهـم، والواقـع عنـده أنّ الجهاد هو جهاد النّفس، جهاد الفكر، جهاد العمل، جهاد الإقناع، وقد التجأ المسلمون فـي حياتهم قديما إلى الجهاد ظرفيّا من أجل فعل دفاعيّ اضـطرّوا إليـه للحفـاظ علـى الأمـن والحياة(9) بعـد أن طبّقـوا استراتيجيّـة الإصـلاح فـي نشـر الـدعوة مـن خـلال عرضـها والتعريف بها ثمّ طلب الجزيـة وأخيرا الجهاد في حال الاضـطرار الـذي لا منـاص منـه وفيما عدا ذلك توخّي الأسلوب القرآني في قوله تعالى: ﴿**جادلهم بـالتي هـي احسـن**﴾(10) وقوله – أيضـا- : ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**﴾(11)، وحسـن تمثّـل الأخـلاق النبويّـة في القـدوة الحسنة في قولـه - تعالـى- : ﴿**فَبِمَا رَحْمَـةٍ مِّـنَ اللهِ لِنـتَ لَهُـمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَـاوِرْهُمْ فِـي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِين**﴾(12)

ج - نبـذ العنـف بجميع أشكالـه وأنواعـه وأساليبـه : يبدو وحيد الدين خان هنا قريبـا من منهج المهاتما غـانـدي (1869-1948م) فـي كفاحــه ضـد الاستعمــار الانقليــزي رغم اختلاف المنطلق الذي يفرّق بين غانـدي(13) ومنطلـق وحيد الـدين، هـذا المنطلـق

الذي استقاه من القرآن والسنّة النبويّة الشّريفة، حيث نادى بوجوب رفع السّلاح بين الأفراد والعامّة مهما كان علمهم وفقههم لأنهم عند الغضب يتحوّلون إلى قتلة مهدّدون لأمن الناس، والجهة الوحيدة المخوّل لها حمل السلاح هي مؤسسات الدولة في أمن ودفاع، وأنّ كلّ مبررات استخدام السلاح مرفوضة في رأيه، عكسا لما تقوله الحركة الإسلامية التي انشقّ عليها والقائلة بأنّ "الحاكميّة" تفرض حمل السلاح.

ويتّخذ خان من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم القدوة والمرجع في تكرار المحاولة والثّبات على المبدأ حتى تحقيق الهدف مثلما حاول صلى الله عليه وسلم بناء الدولة الإسلامية الأولى من خلال محاولات كان منطلقها مكّة المكرّمة والطائف ثم التعريف بالدعوة في الحبشة ثم الحيرة وأخيرا مرحلة التّأسيس والانطلاق إلى المدينة حيث كانت ولادة أول دولة في الإسلام؛ علما وأنّ المراحل الأربعة السابقة للتأسيس بالمدينة (مكة، الطائف، الحبشة ، الحيرة) إنّما كانت مراحل تمهيد وتعريف وكسب أنصار، وقد ذكر خان أنّ المؤرخين الطائفيين يؤكّدون أنه صلى الله عليه وسلم لم يستخدم في كلّ محاولاته أيّ نوع من أنواع وألوان السلاح ولو كان مدية أو سكّينا(14) بل كان - صلى الله عليه وسلم - يعتمد الكلمة والحكمة بالرغم مما مارسه عليه الكفّار من وحشية وعنف.

كما يشير إلى أنّ التاريخ الإسلامي في أغلبه لم ينصف الدولة المحمّدية فبالغ في وصف الجانب العسكري في بداية الدعوة حيث يرون أنه تضمّن 28 غزوة و32 سريّة، بينما الواقع العملي أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم لم يلتحم مع أعدائه إلاّ في ثلاثة مواقع (بدر وأحد وحنين) وهي معروفة في التاريخ ولم تدم أكثر من ساعات معدودات في كلّ مرة من المرات الثلاث (15) بينما كرّس - صلى الله عليه وسلم- بقيّة سنوات وأوقات الدعوة إلى السّلم والمحبّة والبناء.

وزاد رفض وحيد الدين خان لمنطق الحرب خاصة لمّا أيقن أنّ الحركات الإسلامية كانت تربّي الشباب على الجهاد في معناه السّلبي التقليدي، والذي انطلق في الهند وباكستان ثم شاع فتوسّع في كلّ أرجاء العالم الإسلامي بما رأوه من دمار طالت أضراره الشرق والغرب، وما وجود الحركات الجهادية اليوم في كل أرجاء العالم الإسلامي إلاّ دليل على ذلك، وكان من نتائج هذا الدمار والاعتقاد المنحرف رفض كل البرلمانات القائمة لأنها في اعتقادهم كفر وإلحاد، وحذّر خان من نتائج هذا السّلوك الذي بلغ مرحلة الاعتقاد عندهم لأنّ ذلك ما ساهم في رفض تطوير الإسلام بل

والحرص على مطـالبتهم وبشـدّة بتطبيـق الإسـلام الحزبـي السياسـي لا الإسـلام الـديني المتسامح دين كلّ الناس.

دور العقل وأهميته في تطوير الشريعة الإسلاميــة:

يرى خان أنّ الإسلام دين ربّاني قائم على العقل والفكر حيث تعدّدت الآيـات القرآنية وتنوّعت الألفاظ الدالّة علـى العقـل سـواء بصـيغة الاسـم مـثل "العقـول" والألبـاب" أو بصفة الأفعال مثل "يعقـلون" "يتدبّرون" "يتأمّـلون"... وهذا ما يدعو إلى توظيف العقل في استيعاب نصوص الشريعة من جهة وتبليغها من جهة أخرى، وفي عـدم القيـام بـذلك تقصير ومخالفة للشريعــة: ﴿ **أَفَـلَا يَتَـدَبَّرُونَ الْقُـرْآنَ أَمْ عَلَـى قُلُـوبٍ أَقْفَالُهَـا** ﴾(16)، ﴿**أفـلا تعقلون**﴾(17) ، ﴿**أفلا يبصـرون**﴾(18) ثـم الـدعوة إلـى كـلّ مـا يغـذّي العقـل ويجعلـه منـاط التكليف كالأمر بالقراءة بمفهومها الشامل لكل المواضـيع والعمـق لكـلّ المعـاني: ﴿ **اقْـرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْـرَأْ وَرَبُّـكَ الْأَكْـرَمُ الَّـذِي عَلَّـمَ بِـالْقَلَمِ عَلَّـمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾(19)

كما يرى من خلال واقعه وتجربته ومقاومته لغالب المنتمين إلـى الحركـة الإسـلامية، ويعتقدون في أنفسهم أنهم خدمة الدين، والحال أنهم أساءوا فهم هـذا الـدين حتـى أفسـدوا على الناس حياتهم، ولذلك نادى وحيد الدين خان بإلحاح وبكل جرأة وصراحة إلى إيلاء العقل اهميته ودوره الأكبر في تطوير الشريعة للحيلولة دون تغوّل "رجال الـدين" علـى أذهان العامّة، فيوهمونهم أنّ كلّ مسألة من مسائل الحياة لا بدّ أن يوجد لها حكم شـرعي في نظرهم، وبات لزاما على كلّ مسلم فردا أو جماعة أن ينتظر رأي من يسمّون أنفسهم رجال الدين وأوصيائه ليقولوا رأيهم في كلّ المسائل ما دقّ منها وما عظم، وفـق آرائهـم طبعا، فالحلال ما حلّلوا والحرام ما حرّمـوا(20)

واعتبـر خـان أنّ الـدين الإسـلامي هـو ديـن العقـل الـذي جـاء ليقضـي علـى ثقافـة وممارسات الكهنوت التي يمارسها أغلب رجال الدين في عصـره ووطنـه، وقـدّم الأمـر في صورة بائسة تذكّر بممارسات المنطق اليهودي التـوراتي فـي حادثـة سـورة البقـرة، حيـث أراد بنـو إسـرائيل أن يبـيّن الـوحي لهـم لـون البقـرة وطولهـا وعرضـها وكامـل أوصافها، وهو مـا آل بالإنسـان إلـى الخمـول العقلـي والتفصّـي مـن المسـؤولية، قـال – تعالى- : ﴿ **قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَـا** ﴾ (21) بعـد أن قـال علـى لسـان موسـى: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا** ﴾(22) فـــ﴿ **قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾(23)

وواصل خان نقده لهؤلاء الذين ضيّقوا في الإسلام ما هو عقلاني تدبري وما هو رحمة للعالمين، فيشير إلى أن الفقه التقليدي بقدر ما كان اجتهاده وتحريه في أمور العبادات، إلا أنه كاد يكون غائبا في التطبيق والمعاملات حيث يقول: «إنّ الإنسان الواعي المتحرّر لو ألقى نظرة على مكتبتنا الإسلامية سيجد فرقا شاسعا بين "الدين المنزّل" و"الدين المدوّن"» (24)

هـ- سحب البساط من سطوة علماء التقليد: يصدر خان دعوة عالية وصريحة أنّ أغلب من يسمّون أنفسهم علماء الإسلام إنما أساؤوا إليه، وهو يقصد حتى الفقهاء وأهل الإفتاء، وإنّ الأمّة الإسلاميّة لا يكفي أنها مكبّلة بقيود الاستعمار وما أنزله بالأمّة من مآسي التّغريب ونهب الثروات وإفساد الأخلاق وإشاعة الموبقات وتخريب العقول، فإنها أصبحت اليوم تحت سيطرة "الإصر والأغلال" حتى غدت ممارسات من ينصّبون أنفسهم دعاة الدين وحماته مشابهة لممارسات الشيعة والكنيسة في تاريخها المليء بنشر ثقافة التبلّد الذهني والخراب الفكري والتلوّث الاعتقادي، والذي يتوجّب على علماء المسلمين ومصلحيهم الخلّص أن يطهّروا الإسلام من هذه الممارسات والانحرافات ذات المصادر الغربيّة الواردة في تاريخ الأحبار والأساقفة عبر التاريخ. وإنه بدون حزم من المسلمين وعلمائهم الواعين بدقّة المرحلة وبجوهر الإسلام في مضمونه ودلالاته وأهدافه لا يمكن أن نتقدّم ولو خطوة واحدة في سبيل "إحياء الإسلام" منهجا وأسلوبا وسلوكا يتماشى وعصرنا، مع الحفاظ على الثوابت، فالدين ليس فنّا ولا تقنية ولا قانونا ولا اقتصادا جافّا من روح الأدب والسّلم والسّلام والطمانينة والعقيدة ، إنه دين الرحمة في القلوب والمشاعر النبيلة البنّاءة، فهو الدين الإلهي الذي اعتنى بالإنسان جسدا وروحا اتخذ من الحقائق والمعاني قيما تتجاوز ضيق الأفق والدعوة إلى التعصّب والإغراق في الجزئيات التي تهدّم الكليات من خلال الإطناب فيها وتغليبها على الأصول ، فبقدر ما أنّ الإسلام يعلّم الإنسان التدبّر والعلم والفكرن بقدر ما أنّ "رجال الدين" يغرقون المجتمع في الجدال العقيم الذي لا ينتهي ويؤسّس للعداوات والبغضاء وتفكيك المجتمع(25)

وعليه، فإنّ وحيد الدين خان بقدر ما يقرّ بالسّلفيّة الإيجابية المقيّدة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه وأتباعه فإنه يؤكّد أنّ مرحلة زمنيّة عبرت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي ما تلاه، ولكن بحدوث قضايا جديدة وأوضاع متشعّبة يبقى العقل البشري بما تغذّاه في ريع الشريعة هو الحاكم اليوم وفق المقولة: "إنّ الأحكام

تتناهى والوقائع لا تتناهى"، حيث يجعل في الآية الكريمة : ﴿ **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾(26)

وبقدر ما يبدو وحيد الدين خان قاسيا في نقده فإنه يفرّق بين الدين ممثّلا في القرآن الكريم وحيا ربّانيا نزل به جبريل عليه السلام وعلى الرسول صلى الله عليه وسلم وتكفّل الله بحفظه، قال تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ** ﴾(27) قال – تعالى - : ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾(28) وممثلا في السنّة النبويّة الصحيحة الخالية من كلّ ما يشوبها من وهن وضعف، وفي الفكر الديني الذي هو نتاج العقل البشري وما يلحق به من تأثير وانطباع ويساوره من أهداف وغايات ومرام(29) وعليه فإنه يعي جيّدا أنّ الفكر الديني ليس حجّة على الدين، ولكن إذا ما عمّ الجهل بالدين حسب الناس أنّ الفكر الديني هو الدين في حدّ ذاته(30)

عالج خان قضية استعمال العقل في الإسلام من أجل معالجة أوضاع المسلمين والخروج بهم من واقع التخلّف والتبعيّة إلى واقع الحياة العملي التائق إلى التحرير والانعتاق والخروج من دوامة الماضي إلى نور الحاضر وأمل المستقبل، وقد عبّر عن هذا من خلال كتابه "الإسلام يتحدّى"(31) الذي حاور فيه الملحدين بالأساليب التي يفرضها العقل ويؤيّدها القرآن وبالأدلّة العمليّة حتّى يكون الإسلام من خلال القرآن هو علاج العصر واقعا وآفاقا، «... وكثيرا جدا ما نقرأه في تلك الكتابات التقريرية أو الرثائية الوعظية التي تخطّها أقلام، إن كانت تتاجر بالدين فلا غرابة... في عالم يقوم على المتاجرة حتى بالقيم، فأمّا إذا كانت بالعلم وبالذكاء فذلك هو داعي الحسرة والإشفاق في أنفسنا على علمائنا الأذكياء»(32)

وفي مقارنة حال المسلمين المنشغلين باجترار الماضي وإضاعة الوقت مقارنة بالغرب العامل المخترع يقول بألم وحسرة: «هذا على حين يتشاغل كتّاب الفلسفات المادية برسم تطلّعات العصر، وعلاج مشكلات التطبيق على مستوى عالمي، حتى ليحسّ المرء بعد مطالعة بحث من هذه البحوث بحاجته إلى أن ينزوي نفسيّا في ركن من أركان اليأس والقنوط لأنه غائب تماما عن المعركة الحاضرة!!!»(33)

المبحث الثاني ـ المنهج العلمي للإصلاح والدعوة عند خان :

المطلب الأول ــ المنهج العلمي للإصلاح:

يرى خان أنّ أيّ إصلاح ذاتي أو وطنيّ أو كوني لا بدّ أن يتوخّى منهجا علميّا يقوم

على كلّ ما أفرزه العقل البشري السّليم من تجارب ونظريات سواء كانت متعلقة بالعلوم الكونيّة المضبوطة كالفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء، أوعلوم إنسانية خاضعة للحوار والجدل والإضافة، إضافة إلى العلوم الشرعية التي يقرّها الشرع والعقل.

وينّبه خان إلى ظاهرة طالما أرهقت المسلمين وشغلتهم عن العلم والعمل والبناء، فيقول: «... تلك محنة الوجدان والعقل المسلم الذي ينشد لدى كتّابه ومفكّريه مستوى من المبادرة والجدّ والإخلاص، ولونا من الكتابة المباشرة التي تعيش عصرها وأفكاره وتطلّعاته، فإذا هم يرددون على مضض حكايات الأولياء واجترار بضعة خيالات محلّقة في سماوات التّيه ومجابهة الواقع الصارخ الملحّ بما يميّعه في وعي الجماهير، ثم يسرح بها بعيدا بعيدا في أحلام الماضي وتصوّراته» (34)

وحتّى يكون خان عمليّا فيما يقول، فإنه عمد إلى تأسيس المركز الإسلامي بنيودلهي سنة 1970 جاعلا منه نقطة إشعاع وعلم وحضارة، وملتقى حوار ونقاش، من أجل إنارة العقول ونشر الإسلام في وضعه الصافي الخالي من كلّ زيغ وانحراف أو تعصّب. كما أصدر سنة 1976 مجلة "الرسالة الأردية" موجّها إلى تلك الربوع من باكستان والهند وكلّ الشعوب الناطقة بتلك اللغة، وسرعان ما صوّرها ونشرها باللغتين الأنقليزية والهندية تباعا في سنوات 1984 حتى 1990 وذلك بغاية التعريف بأصول عقيدته وتبليغها إلى عامّة الناس من المسلمين وحتى الخصوم الفكريين داخل الإسلام أو خارجه، ذلك انه يؤمن بالحوار وتبادل الرأي وإقامة الحجّة، حجّة العقل لا حجّة السّلاح.

وأمّا منهجه العلمي فقد صاغه وهو يؤمن عمليا بما يحيكه الآخر للمسلمين من خطط وبرامج حتى يبقى العالم الإسلامي مستوردا للبلاغة والفكر وأدوات التفكير ومناهج التعليم حيث يقول: «... وممّا لا شكّ فيه أنّ العالم الإسلامي هدف ثمين من أهداف تصدير الأفكار نظرا إلى موقعه وخطورة موقفه بين الكتل المتصارعة، أو بعبارة أخرى مراكز الإنتاج والهدف من وراء التصدير واحد لدى كلّ هذه المراكز أي يبقى هذا العالم مفتقرا إليها، على اختلافها، وأن يُحال بينه وبين أفكاره الأصليّة... التي يمكن أن تغنيه عن الاستيراد وتحقّق له الاكتفاء الذاتي...»(35)

ويشبّه وحيد الدين خان سوق الفكر عند المسلمين بسوق اقتصاديّ يؤمّه المحتكرون والسماسرة، فكلّما كان المنتج "المفكّر" على غاية من الحصافة وسلامة الحدس والفطنة كان ما يقدّمه أجود وأقدر على المنافسة حيث يقول: «وسوق الأفكار أخطر أسواق

المنتجات وأكثرها تقبّلا للتزييف والإفساد ومن ثمّ حفلت أسواقنا بما هو أشدّ فتكا من السّموم وأعظم انتشارا من الهواء، يتخلّل كلّ خليّة، وينخر في كلّ بناء، أفكار ترتدي أثوابا أو تحمل شعارات أو ترفع مشاغل، ليس الثّوب فيها أو الشعار أو المشعل إلاّ قناعا يستر الزيف والخطر...»(36)

ويواصل خان سرد الأمثلة على ضرورة الانتباه إلى ما نأخذ من الغير، والغربي بصفة خاصة، فالمفروض أن نحاكيه أو ننقل عنه أو نستلهم منه ما نحن في حاجة إليه، وما يخدم مصالحنا الدينية والدنيويّة دون أن ننسى الأهداف التي وضعناها لأنفسنا والواجب علينا تحقيقها وبلوغها.

إنّ بلوغ الأهداف لا يتعارض مع الشريعة إطلاقا طالما توخّى الصّواب والحكمة واعتمد الآليات العلميّة والمنطقية والإنسانيّة المعروفة، وهذا ما نلاحظه حتى في المواضيع التي تطرّق إليها وحيد الدين خان معتقدا أنها تخدم الهدف وتحقّق المراد، وهو ما يرنو أهل الإسلام إلى بلوغه، فنجده يتوخّى الكتابة والمحاضرة والملتقى والحوار من أجل محاربة العنف ونبذ التطرّف، لذلك يسعى إلى التأليف بين رموز الحركات الدينية والانتماءات الطائفية المتنوّعة والمتعدّدة في المجتمع الهندي(37) سواء كانت هذه الطوائف والفرق منضوية ولو ظاهريا تحت الإسلام أو كانت خارجة عنه في الديانتين اليهودية والمسيحية أو حتى في الديانات الوضعيّة كالبوذية بطوائفها وغيرها.

وللتاريخ فإنّ "خان" كان بكتابه "الإسلام يتحدّى" خاصة بعد نقله إلى العربية والأنجليزية يمثّل قنبلة فكريّة في عالم الإسلام المعاصر من حيث الإصداع بالرأي والدعوة إلى الحوار، فتجاوز بذلك معاصريه أبي الأعلى المودودي وأبي الحسن الندوي، «وهؤلاء القلّة – يقصد المصلحين- لا تكاد تخلو منهم أرض الإسلام، يكتبون بكل لغة ويحاربون في كلّ معركة وإيمانا منهم بوحدة المقاتلين أمام الخطر الزاحف... ومن هؤلاء القلّة مؤلّفنا هذا (وحيد الدين خان في "الإسلام يتحدّى") الذي دخل اسمه لأوّل مرّة حقل اللغة العربيّة بنشر ذلك الكتاب "الإسلام يتحدّى" وإن كان لاسمه رنينا مدوّيا في شبه القارة الهندية، باعتباره ثالث اثنين يتولون قضية الإسلام المعاصر في وجه الزحف الفكري (أبو الأعلى الموجودي وأبو الحسن الندوي) ووحيد الدين الذي فاقهم وانشقّ عليهم منهجا وتصوّرا وليس هدفا...»(38)

ويرى وحيد الدين خان أنّ أهمّ خطوة يقوم بها المصلح في منهجه العلمي هي **تشخيص القضايا**، ومعرفتها معرفة دقيقة بجزئياتها وتفاعلاتها وأصولها وأهدافها حتى يسهل عليه رصد وإعداد المنهج الملائم للتفاعل معها، وهو ما حاول تطبيقه في

رسالته "الإسلام يتحدّى" في الردّ على الخصوم، أولئك الخصوم الذين يستعملون الفكر والعقل في الحوار والمناورة، ولذلك أقام عناصر منهجه العلمي على اعتماد قوانين الإحصاء والفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء وغيرها...(39)

وقد أشار بعض النقّاد إلى ذلك خلال الحديث عن هذا التيار الإصلاحي الذي يمثّله وحيد الدين خان بقوله: «إنّ المشكلات التي يواجهها الإسلام في هذا العصر منها ما هو علمي، لذلك وضع له كتاب "الإسلام يتحدّى" لوجه الله بلغة العلم ومصطلحاته، ولذلك كان لزاما أن نضع إصاباتنا في مواجهة هذه الحملات المسعورة بنفس المصطلحات العقليّة والعلمية التي يستخدمها المعارضون للدين... ولا يزال هذا الميدان منذ أمد طويل مجالا لنشاطي واهتمامي حتى كان آخر ما كتبت "الإسلام يتحدّى" »(40) وقد خطّه بنفسه موضّحا ما يريد بلوغه ووفق أيّ منهج.

المطلب الثاني ـ المنهج الدعوي لوحيد الدين خان:

لم يفرّق وحيد الدين خان في مسيرته العلمية والنضالية بين أمرين يراهما متلازمين هما الإصلاح والدعوة لارتباط كلّ منهما بالآخر بالرغم من اختلاف منهج الدفاع عنهما وتبليغهما، ذلك أنّ الإصلاح أكثر عموميّة فلذلك نهج فيه المنهج العلمي، باعتبار أنّ أغلب المخاطبين فيه هم على قدر من الفكر والعلم يجعل مجادلتهم بالعلم أجدى، ثم لانتماءاتهم المختلفة لأديان متعدّدة أو ملل ونحل متعددة، على عكس المعنيين بالدعوة فأغلبهم من المسلمين الذين كان حظّهم قليل في الأخذ من منابع الإسلام، فكان الانحراف والتحريف والتطرّف وتفسير الدين على ظاهره وبما ليس فيه، لذلك توخّى معهم أسلوبا ومنهجا غير المنهج العلمي الذي التزمه في إقناع الملحدين ومغالبتهم.

يقول عن منهجه موضّحا المخاطر التي تنتظره وما يمكن أن يشمله المجال الدعوي وأسباب قيامه بذلك من حيث الدوافع والمآلات: «والميدان الثاني لنشاطي هو ما نسمّيه بميدان بناء الأمّة الإسلاميّة وتعميرها والعمل على نهضتها، وعلينا في هذا المجال أن نكتشف العلل ونمحّص الأسباب السياسية والاجتماعية التي أدّت إلى سوء أحوال المسلمين، ثم وضع خريطة للمستقبل بعد الوقوف على أسباب النّكسة التي أصابتنا وتقوية الشعور القويّ لدى المسلمين في شبه القارّة الهندية للرّبط بين مختلف أنشطتهم، فيجعلها مجموعة معنوية شاملة وحثّهم على مواصلة الجهد لتكون منهم أمّة قويّة جامعة في العالم...»(41)

إنّ إيمان خان برسالته الدعويّة يدفعه إلى السعي لتوفير كلّ المقدّمات التي تسعى لإنجاحها من خلال جمع كلّ الطوائف حيث يرى أنّ ما يجمع بينها أكثر مما يفرّق، وأنّ

السّـلام المنشـود هـو روح الإسـلام وجـوهره وأنّ المسـلمين جميعـا شـركاء فـي الحيـاة الاجتماعية من أجل الخروج بمجتمع قويّ وسليم، داعيا في الآن نفسه إلى الترويج للفكر النيّر والعمل الإيجابي من أجل تجاوز الأزمات ومحاربـة العنـف والتطـرّف ونشـر قـيم الخير تحقيقا لمبدأ الآية الكريمة في قوله ـ تعالى- : ﴿**يَأَيُّهَا النَّـاسُ إِنَّـا خَلَقْنَـاكُمْ مِـنْ ذَكَـرٍ وَأُنْثَـى وَجَعَلْنَـاكُمْ شُـعُوبًا وَقَبَائِـلَ لِتَعَـارَفُوا إِنَّ أَكْـرَمَكُمْ عِنْـدَ اللَّهِ أَتْقَـاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِـيمٌ خَبِيرٌ**﴾(42) ذلك أنّ الأصل واحد والتعارف يقتضي التّوادد والتّراحم والتّعـاون والتحلّـي بكلّ آداب المودّة بعيدا عن التعالي والسخرية والتفاضل إلاّ بالعمل الصالح وقوّة الإيمـان وأهميـة ما نقدّمه للآخر من نفع ومساعدة.

ووضّح خان هذه المهمّة أكثر في صـحيفته التـي أسّسـها للـدعوة حيـث يقـول: «نحـن نصبو إلى بعث الأحلام التي رآها أسلافنا خـلال كفـاحهم وتحقيقهـا لإعـلاء شـأن الأمّـة المسلمة وهي الأحلام التي لم تتحقّق بعد لسـبب أو لآخـر... وهـذه هـي المهمّـة الفكريّـة التي تضطلع بها صحيفتنا "الجمعية الأسبوعية". ويمكننا أن نقول بحق: إنّ هذه المهمّـة قد أصبحت بحقّ أكبر ميزة خاصة لجريدتنا في المجال الصحفي في هذا العصـر، علـى حـين أصـبحت الصـحافة الإسـلاميّة علمـا علـى الرثـاء، بـل إنّ آخـر مـا تسـتطيعه هـذه الصحافة هو مجرّد التعليقات السياسية علـى الأحـداث العامّـة وتقـديم بعـض المعلومـات الطريفة التي يتشوّق إليها العامّة من القـرّاء...»(43)

ومن مناهج الدعـوة عند خان هو كلّ وسائل الاتّصال والتّواصل المتاحة آنـذاك والتـي خصّص لها مركزا ومجلة إيمانا بدورها كثيرا في قوله: «... ففي كنف المناخ الصـحفي تُعتبر "الجمعية الأسبوعية" الصحيفة الوحيـدة التـي تعمـل علـى إحيـاء وتقويـة الشـعور القومي لدى المسلمين باحثة عن مواطن الخطـأ فـي كفـاحهم الحضـاري، ونحـن لا نجـد كلمات نشكر الله بها على أنه – سبحانه- اختارنا بمشيئته لسدّ هذا الفـراغ...»(44)

يتبيّن لنا من خـــلال أقواله وأفعاله في مجال الدعوة وأسلوبه وطريقته من خلال ذلـك أنّ الرجل هو صاحب دعوة –رسالة يريد إبلاغها إلى ضمير الأمّة الإسلامية إيمانا منـه أنّ مسؤوليتها في نشر الدين والدفاع عنه والتعريف بأركانـه وقيمـه يحتـاج إلـى مبلّغين ودعاة يحرّكون الهمم ويستنبهون العزائم ويدعون المسلمين إلى التوحّـد أمـام الأخطـار الجاثمة على صدور المسلمين والتي لا تزال محدقة بهم، كما كان خان واعيا أنّ رسـالة الدعوة ليست هيّنة فهي تستغرق العمر كله، ولذلك أراد اختصار الطريق إليها من خلال ما كتب في شتّى الأغراض(45) ومن خلال تسخير المجلّـة التـي أطبقـت شـهرتها الآفـاق

خاصة بعد أن تُرجمت أعدادها إلى العربية والأنقليزية زيادة على اللغة الأصلية وهي الأرديّة.

كتب وحيد الدين خان كتابه وفي ذهنه حضور لذوي الفكر النقدي من الملاحدة وحتى المعاندين وكذلك وضعه على أسلوب يسهل معه التّواصل مع هؤلاء معتبرا أنّ أعظم قضايا المجتمعات اليوم هي الدين بمفهومه الشامل بعد الإيمان بالله واليوم الآخر، على أنّ مفهوم الدين عنده هو ما عنته الآية الكريمة: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ**﴾(46) ولهذا المبدأ كرّس كلّ وسائل ومناهج الإقناع من أجل بلوغ الهدف، وأورد كلّ القضايا المتعلّقة بالدين والتدليل عليه متوخّيا أسلوبا يعتمد إيراد الحجّة في القرآن بإعجازه العلمي التاريخي البلاغي ثم تناول مشكلات الحضارة الإنسانيّة كالعلاقات والعدل والتعايش والسّلام.

إنّ وحيد الدين خان بما يمثّله من مدرسة فكريّة نابعة من روح الشريعة الإسلاميّة تشيد به كلّ القيم الإنسانية الكونية لتأكيد إنسانية الإنسان، لم يكن وحده من المصلحين ضمن هذا المسار وإنّما كان واحدا من أبرز العلامات المضيئة في تاريخ الدعوة الإسلامية.

ترى هل ما أنجزه وحيد الدين خان كافيا لمواصلة السير في منهج الإصلاح والبناء، أكيد أنّ هذا أساسيّ ولكنه غير نهائي في ذلك، وعلى المسلمين اليوم وغدا استلهام القدرة والاقتداء من خان وغيره من رجال الدعوة والإصلاح الذين وعوا قضايا المجتمع وأدركوا أحسن المناهج من أجل الأفضل بتوخي كل أساليب الدعوة ووسائلها العلمية التاريخية الفكرية وغيرها.

الهوامـــــــــــــش:

1- مقال بعنوان: مجلة الإصلاح والتحرير: وحيد الدين خان، مجلة الكترونية فكرية ثقافية جامعة تصدر شهريا عن منتدى الفارابي للدراسات والبدائل Alislah mag.come
2- خـان وحيد الدين: الماركسية في الميزان، تر. ظفر الإسلام خان، دار الصّحوة للنشر (دت).
3- الخضري طارق حسين محمد: وحيد الدين خان وآراؤه الاعتقادية والفكرية، عقيدة الإسلام: دراسة نقدية، رسالة ماجستير بكلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 2010 (المقدمة).
4- أُنظر كتاب وحيد الدين خان: "خطّ في التفسير"، الصادر بالأوردية سنة 1963 والذي ترجم إلى العربية سنة 1992، ط. أولى عربية، نشر الرسالة للإعلام الدولي مدينة نصر المصرية.
5- م.ن.
6- بدر الدين محمد حسن: مقال : تجربة تجديد علوم الدين لدى وحيد الدين خان، مؤمنون بلا حدود، 28 نوفمبـر 2019.
7- م.ن.
8- إبراهيم الطيب الأميـر: الشيخ وحيد الدين خان وجهوده في الدعوة، رسالة ماجستير في الشريعة ، جامعة أم درمان، السودان، 2009، ص123.
9- م. ن.
10- سورة النحـل، الآية: 125.
11- سورة النحـل، الآية: 125.
12- سورة آل عمران الآية: 159.
13- العقّـاد عبّـاس محمـود: روح عظيم الهاتما غانـدي، نشر مؤسسة هنـداوي، 1948، وأعيد طبعه سنة 2014 حيث يصفه بأنه "قدّيس القرن العشرين".
14- النجّـار هشام: مقال: وحيد الدين خان مـجدّد يكتشف...، مجلة العرب، ط1، 2017 Magasines.spirit of islam-AL-Risala
15 م.ن.
16- سورة محمـد الآية: 24.
17- سورة البقـرة الآية: 44.
18- سورة الـذاريات الآية: 21.
19- سورة العلق الآيات: 1-5.
20- مقال نشرته وكالة نورث بريس أجنسي North Presse Agency، نص الكتروني تحت عنوان "وحيد الدين خان... التنويري في مواجهة الكهنوت" ، بتاريخ 24 أفريل 2021.
21- سورة البقـرة الآيـة: 69.
22- سورة البقـرة الآيـة: 67.
23- سورة البقـرة الآيـة: 67.
24- خان وحيد الدين: تجـديد الدين، تر. ظفر الإسلام خـان، طبعة 2015، دلهي الجديدة- الهنـد.
25- أُنظر خان وحيد الدين: تجديد الدين، م.س.
26- سورة البقـرة الآيـة: 134.
27- سورة الشعراء الآيـة: 192.
28- سورة الحـجـر الآيـة: 9.

29- بدر الدين حسن: مقال تجربة تجديد علوم الدين لدى وحيد الدين خان، مؤمنون بلا حدود، 28 نوفمبر 2019 (م.س).
30- العليان عبد الله: وحيد الدين خان مفكّر برؤية علميّة منهجية، بتاريخ الاثنين 30 يناير 2017، مجلة عمان دايلي Omandaily.com
31- خـان وحيد الدين: الإسلام يتحدّى، تر. ظفر الإسلام خان، مراجعة وتحقيق عبد الصبور شاهين، ط2، 1973، المجمع العلمي الإسلامي التابع لندوة العلماء لكنـو-الهنـد.
32- م. ن، المقدمـة، ط1، ص7.
33- م. ن، المقدمة، ط1، ص7.
34- خان وحيد الدين: الإسلام يتحدى (م.س)، المقدمة، ص7.
35- خان وحيد الدين: الإسلام يتحدى (م.س)، المقدمة، ص9.
36- م. ن، ص8-9.
37- راجع: إبراهيم الطيب الأمير: الشيخ وحيد الدين خان وجهوده في الدعوة (م.س).
38- خان وحيد الدين: الإسلام يتحدى (م.س)، المقدمة، ص10.
39- راجع فهرس كتاب "الإسلام يتحـدّى".
40- خان وحيد الدين: راجع افتتاحه "الجمعيّة الأسبوعيّة"، التي أسّسها بنفسه، عدد 7 فيفري 1969،(م س)، ص10
41- خان وحيد الدين: مقال الافتتاحية "الجمعيّة الأسبوعيّة"، (م.س).
42- سورة الـحجرات الآيـة: 13.
43- خان وحيد الدين: صحيفة "الجمعيّة الأسبوعيّة"، (م.س) المقدمة.
44- خان وحيد الدين: "الصّحيفـة الأسبوعيّة"، (م.س).
45- بلغت كتبه أكثر من 26 كتابا على المقالات والمحاضرات، ومن بين أسماء الكتب المشهورة: "الإسلام يتحدى"، "الإسلام والعصر الحديث"، "الإنسان القرآني"، "قضية البحث الإسلامي"، "الجهاد والسّلام والعلاقات المجتمعيّة في الإسلام" "إيديولوجيا الإسلام"، "الدين في مواجهة العلم"، "رسول السّلام"...
46- سورة آل عمران الآيـة: 19.